

قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغدامي

الدكتور يوسف حامد جابر*

الملخص

يهدف كتاب النقد الثقافي إلى الكشف عن المضمرة النسقي في النصوص الأدبية التي تشكل بنية الثقافة السائدة، وي طرح مشروعه النقدي بوصفه بديلاً من النقد الأدبي الذي تقتصر مهمته على البحث في جماليات هذه النصوص، ليمارس فعل التعمية على مضمراتها التي تمثل جوهرها الحقيقي. من هنا يأتي النقد الثقافي ليكشف عن تلك الأنساق الثقافية، ويقوم بتعرية مضامينها، وكشف أتماطها التي تتداخل مع أتماط المجتمع، فترسخ من خلال ذلك هيمنتها عليها، ثم تعمم هذه الهيمنة عبر وسائل الإنتاج الثقافي والاجتماعي المختلفة. وقد قمنا بمناقشة مضمون هذا الكتاب في أهم مفاصله وعملنا على تصويب بعض مساراته.

كلمات مفتاحية: النقد، الثقافي، الأنساق، عبد الله الغدامي

المقدمة

بدأ النقد الثقافي يطل على الساحات المعرفية في العقود الأخيرة من القرن الماضي، بوصفه بديلاً من النقد الأدبي، يستوعبه، ويتجاوزه في الوقت ذاته، فإذا كانت مهمة النقد الأدبي تقويم الأعمال الأدبية بعد تحليلها واكتشاف قوانينها الداخلية، فإن النقد الثقافي يتجاوز هذه المهمة ليخلق شبكة من التداخلات المعرفية التي تشمل حقول المعرفة الإنسانية، الساعية إلى الكشف عن الأنساق المضمرّة في النصوص الأدبية التي لم يتمكن النقد الأدبي من كشفها والقبض عليها، إذ إن النصوص الأدبية تخفي في ثناياها متوناً أخرى غير متون القيم الفنية والجمالية التي تخلقها علاقات التركيب والصورة والأسلوب والدلالة التي يسعى الناقد الأدبي إلى إظهارها، متوناً تصنعها بنية ثقافية، تقوم بتشكيلها قيم اجتماعية وتاريخية وحضارية، عبر مسارات زمنية متنامية، تتغلغل في بنية النصوص الأدبية، وتوجهها،

* - أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

بقصد أو من دون قصد، لخلق أنظمة معرفية تهيمن على السياسة والاقتصاد والتاريخ، وتخطو مخرجاتها باتجاه تكوين علاقات غمطية تتفاعل مع ذاتها، وتتوالد باستمرار، لتعيد إنتاج دلالاتها التي تتحكم بمفاصل إنتاج الثقافة وتوزيعها.

إن كتاب «النقد الثقافي» للدكتور الغدامي يقوم على تبني مثل هذه النظرية وتعميم فعلها على البنية الثقافية العربية، من خلال الكشف عن الأنساق المضمرة في بنية هذه الثقافة التي تخبئ داخل خطابها البلاغي والجمالي قيماً أخرى غير جمالية، منطلقاً من أن الجمالية ليست إلا " أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كل ما هو جمالي هناك شيء نسقي مضمّر، ويعمل الجمالي عمل التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع"^١.

لذلك فإن الهدف الذي يسعى الغدامي للوصول إليه من مشروعه هذا، هو أن هذه الأنساق المضمرة في النصوص الشعرية خاصة، هي التي أنتجت مفاهيم الفحولة الشعرية التي من سماتها، التعالي، وعشق الذات والتمايز بين الآخرين، واحتكار القيم التي أنتجت، بدورها مفاهيم الفحولة السياسية، بما مارسته من طغيان سياسي واجتماعي عبر العصور. فضلاً عن ذلك فإن كتاب الغدامي هذا يطرح قضايا إشكالية، تمس جوهر العلاقة بين المثقف / الشاعر، والسلطة، إذ يحمل الغدامي الشاعر مسؤولية فساد السلطة وطغيانها، دون البحث في طبيعة السلطة وعلاقتها وممارساتها.

وبالنظر إلى ذلك، فإننا سنقوم بقراءة هذا المنتج النقدي، ومناقشة أبرز محتوياته، في محاولة لإعادة تصويب بعض مساراتها، من خلال عدد من المحاور الأساسية، نذكر منها: ١- النقد الثقافي / المنهج والمصطلح، ٢- النسق الناسخ / اختراع الفحل. ٣- تزييف الخطاب / صناعة الطاغية.

أولاً: النقد الثقافي / المنهج والمصطلح:

يباشر الغدامي هذا المحور بطرح عدد من الأسئلة، تشكل مفاتيح دراسته هذه، لعل أبرزها ما يتناول فيها الحداثة العربية، وهل هي حادثة رجعية؟ ثم يتساءل بعدها عن مضمون الشعر العربي

^١ - عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص ٣٠.

ومسؤوليته في القضاء على الشخصية العربية، بإسهامه في اختراع الطاغية السياسي الذي يقاربه الناقد مع الفحل الشعري^١.

وقبل أن نتقل إلى قضايا أخرى تشكل مقومات بحثه، لا بد من مناقشة الغدامي فيما تم طرحه هنا، ونعني بذلك مسألة الحدائث بوصفها حركة تمس قضايا الإنسان، بما في ذلك قضايا النقد الثقافي الذي يعد أحد تجليات الحدائث التي تعد بدورها إحدى تجليات العولمة، كما سنبين لاحقاً. وهنا يمكن أن نسأل الغدامي، هل توجد لدينا في الأصل حدائث عربية، بالمفهوم العلمي للمصطلح؟، وهل الحدائث بوصفها تمثل نصاً مفتوحاً على مضامين التقدم والتطوير، لا بل هي إدخال هذه المضامين في مسرح الحياة وحركتها الفاعلة، استطاعت أن تدخل إلى مفاصل الحياة العربية؟ أم أنها ظلت طافية على السطح من خلال شعارات يتم إطلاقها بين الحين والآخر، كي تمارس فعل التعمية عما يجري حقيقة في أصل هذه الحياة؟ إن مثل هذه الأسئلة تثير إشكاليات كبرى أيضاً، تخص حركة النقد العربي الحديث الذي يدور في فضاء الحدائث، سواء أكان نقداً أدبياً أم نقداً ثقافياً؟ فإذا كان النقد ممارسة منهجية في البحث تتناول الأعمال الأدبية وفقاً لدراسات متكاملة ومتفاعلة، تراعي وحدته، وتعمل على مقارنته مع فضائه الإنساني والحضاري، وتستثمر طاقاته الخلاقة تفسيراً وتحليلاً وتأويلاً، وتعيد صياغته نقداً، لتجعل جذوة الحياة كامنة فيه، فإن إمكانية فعل ذلك تكاد تكون غائبة عن نقدنا الحديث، ليس عن الفعل النقدي الإبداعي، وإنما عن وجوه الحياة الأخرى، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالحدائث التي وفدت مفاهيمها ومفرازاتها إلينا من الغرب، دون أن نكون قادرين على هيمته المناخات المناسبة لتجسيد هذه المفاهيم، واستقبال تلك المفرازات؟! ففي الغرب مثلاً كان هناك نمو معرفي أفقي وعمودي، تم إنجازهم وفق عملية تاريخية نجم عنها تطور مجتمع شامل ومفتوح في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واللاحق بينى على السابق، ففوكو في الحفر المعرفي، ودريدا في التفكيك، وجادامر وهيدجر وهوسرل وغيرهم في التأويل والفيومولوجيا وغيرهما، ما كانت نظرياتهم لتقوم دون نظريات نيتشة وكانط وهيغل وديكارت وغيرهم، أما في المجتمع العربي فإن مثل هذه المفاهيم، في الأصل، هي مفاهيم مهزوزة، فنحن لا نستطيع الحديث عن ديمقراطية أو عقلانية أو علمانية بالمعنى

^١ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص ٧.

الحقيقي للكلمة؛ أي لا يمكننا الحديث عن امتلاك حدثاً حقيقي، إننا في كثير من القضايا نواجه لاعقلانيات تخرق مجتمعاتنا، وترسخ فيها قيماً تقليدية ترتد بنا إلى قيم أكثر سطحية وانغلاقاً.

نتنقل إلى قضية محورية مهمة يؤكدها الغدامي على مساحة دراسته كلها، وهي إعلانه عن موت النقد الأدبي، بسبب انشغال هذا النقد، حسب زعمه، في قراءة الجمالي الخالص، وتسويغة وتسويقه، ومن ثم، إخفاقه في معرفة عيوب الخطاب، وفي كشف ألعيب المؤسسة الثقافية وحيلها في خلق حالة من التدجين والترويض العقلي والذوقي لدى مستهلكي الثقافة، وإحلال النقد الثقافي مكانه^١.

إن الغدامي لا يكف عن إطلاق الأحكام التي تنقصها الدقة في كثير من المواضيع، سعياً وراء تأكيد مقولاته. وهنا نريد أن نسأله، من قال إن النقد الأدبي يقرأ الجمالي فقط؟ إن هذه المسألة، إن حصلت، ليست علة النقد الأدبي، وإنما علة الناقد، فالنقد الأدبي يشتغل على النص الأدبي، والنص الأدبي فعالية ليست ثابتة، وإنما فعالية متحركة ديناميكية محتملة، وهو يمتلك ذواكر عديدة، ومثلما هو متعدد المعاني، هو متعدد القراءات أيضاً، إنه نص مفتوح، وكل قراءة فيه تنتج معاني جديدة، وهذه المعاني تلمس أدق مفصلات الحياة، بسبب " أن النص هو منتج للشاعر، والشاعر قائم في مجال اجتماعي، وبالتالي، فهو محكوم بالحركة الصراعية المتولدة فيه، مما يسمح بنقل سمات هذه الحركة إلى النص من منظور رؤيته لها، وموقفه المؤسس على هذه الرؤيا، الأمر الذي يجعل النص أكثر التصاقاً بالحياة، ويسمح لنا بمعرفة المزيد عن خصائص الحركة الاجتماعية القائمة التي يشكل النص أبرز منعكساتها " ^٢ وتصبح مهمة النقد الأدبي هنا هي الغوص في عالم النص، الذي يفتح على عالم المبدع / الشاعر، يتقصده كي يكشف عالمه الواسع، ويقبض على مكوناته عبر عمليات إعادة إنتاجه في كل مرة، وهي مكونات جمالية وغير جمالية. فكيف فات الناقد الغدامي إدراك هذا الفهم، وهو الذي جعل دوائر نقده تتسع لتطال أنشطة ثقافية واجتماعية عديدة ومتنوعة؟!.

إن هناك صلة وثيقة تربط النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية، كالفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والأدب واللغة، بوصفها تشكل مكونات الحياة وتجلياتها المعرفية والسلوكية في

^١ - المرجع نفسه، ص ٨-٩.

^٢ - يوسف حامد جابر، قضايا الإبداع في قصيدة النشر، ص ٧.

كل زمان ومكان. "إن النقد يكشف بدوره في الأدب عن الإنسان في محيط اجتماعي عادي، في الأسرة أو المجتمع الخاص به، أو بنواحيه المختلفة، فيكشف بذلك عن طبيعة الإنسان في ذاته وعن كفاحه في تحقيق مصيره، سواء كان هذا الكفاح ضد الطبيعة أو ضد قيود مجتمع ما، أو ضد من يقفون في سبيله من الأفراد"^١. وبذلك يصبح أبرز مهامه الكشف عن أسرار هذا الواقع وتعرية مقوماته ومركزاته التي يتضمنها النص الأدبي، وليس من مهامه التعمية على هذا الواقع والقفز من فوقه.

إن الناقد الغدامي مغرم بالنقد الثقافي، لا يكف عن مدحه وتثمين قيمته، دون أن يبين لنا كيف تسرب هذا النقد إلى الساحة الثقافية العالمية، ثم استقطبته الساحة الثقافية العربية بوصفه أحد مفرزات حركة العولمة التي تعمل على احتواء مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية، والسيطرة عليها، بعد أن تمكنت هذه العولمة من اختراق معظم الحصون الثقافية والفكرية والعقائدية التي بنتها المجتمعات البشرية لتحصين ذاتها من مثل هذا الغزو، دون أن يعني ذلك أن العولمة لا تتضمن قيماً إيجابية، تخص الثورة المعلوماتية، وتطور وسائل الاتصال والإعلام وتحديث معالم المجتمع، وغير ذلك. غير أن تمثل مثل هذه القيم لمصلحة إنسان هذه المجتمعات، وليس إلى تركها تدخل مفاصل حياتنا، وتغول فيها، لتجعل كل شيء فيها تابعاً لها على حساب مستقبل الإنسان العربي وهويته، والطعن في انتماءاته الفكرية والحضارية. وقد تمثل هذا بشكل واضح في طروحات النقد الثقافي الذي تبناه الغدامي، وجسده في تناوله البنية الثقافية العربية، ولا سيما الشعرية منها، دون تحليل موضوعي لبنية المجتمع العربي ولتحولاتها عبر العصور، وهذا سيشار إليه في حينه.

ننتقل مع الناقد الغدامي إلى قضية تخص حساسية الناقد الأدبي الذي ينفي عنها سمة التطور والتجديد عبر مراحل تشكل النقد الأدبي حيث يقول: "ما كان جميلاً في نظر الناقد القديم ظل جميلاً لدى الناقد الحديث"^٢. وهذا كلام يفتقر إلى الصواب والدقة، ذلك أن الغدامي لم يجر مقارنة بين مواقف أعلام النقد القديم، ومواقف أعلام النقد الحديث من أشكال المكونات الأدبية ومضامينها ومفهوماتها. صحيح أن هناك مواقف نقدية قديمة وأخرى حديثة، يمكن مقارنة بعض مكوناتها، غير أننا

^١ - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص ١٤.

^٢ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ٥٩.

نجافي الصواب إذا قلنا إن الحساسية النقدية بقيت كما هي في القديم والحديث، ولا نعتقد، ولا نظن أن غيرنا يعتقد كذلك، أن مواقف الأصمعي وابن سلام وابن قتيبة وثلعب وابن المعتز وابن طباطبا والعسكري والآمدي والقيرواني وغيرهم من مفاهيم الشعر واللغة والخيال والصورة والتركيب والوزن والإيقاع وغيرها، هي نفسها مواقف العقاد ونعيمة وطه حسين ومنصور ولويس عوض ومحمود أمين العالم وحسين مروة وأدونيس وجابر عصفور وكمال أبو ديب وغيرهم. صحيح أن مفاهيم الحدائث في حياتنا الثقافية والاجتماعية هي مفاهيم مهزوزة، بسبب كونها ما تزال في الإطار النظري غير المنهج، وغير المصوغ في إطار نظرية متكاملة، بسبب عوامل تعود إلى طبيعة المجتمعات العربية، وطبيعة نخبها المثقفة، ولكنها تظل بين الحين والآخر بشكل حجول، وتسعى إلى تحريض المتلقي على تمثلها وبلورتها.

إن حكم الغدامي هذا يعود إلى رغبته في تسويق مشروعه في النقد الثقافي، لأنه قل أن تخلو صفحة واحدة من تأكيده على أهمية هذا النقد وأهمية ممارسته، ومن ثم، التأكيد على الدلالات النسقية المضمره التي يمكن للنصوص الأدبية أن تتضمنها، ثم دعوته إلى إحداث نقلة نوعية للفعل النقدي من كونه النقدي إلى كونه الثقافي، مما يستدعي، من وجهة نظره، عدداً من العمليات الإجرائية، يجب الأخذ بها، وهي النقلة الاصطلاحية التي تشمل عدداً من الوظائف والدلالات، لعل أبرزها، الدلالات النسقية ذات البعد الثقافي، والحجاز الكلي، والتورية الثقافية، ونوع الدلالة والجملة النوعية، والعمليّة الثانية هي النسق الثقافي، ثم وظيفة النقد الثقافي المتمثلة بالانتقال من نقد النصوص إلى نقد الأنساق، ثم التطبيق المتمثل بمعرفة الأنساق التي أبرزها نسق الشخصية الشعرية^١.

وعلى الرغم من أن الناقد يفصل في هذه العمليات الإجرائية، ويمعن في شرح واستحضار الأدوات والمفاهيم والطرائق الأخرى التي يمكن أن تدعم حضور النقد الثقافي، وترسخه في الساحة المعرفية، مما يعكس خلفية معرفية غنية، غير أنه كان يخفق أحياناً في إطلاق بعض الأحكام، وفي تمرير دلالات تحتاج إلى تصويب وإعادة نظر. ففي معرض حديثه عن الدلالة النسقية نجده يفصل بين الدلالة الصريحة المرتبطة بالشرط النحوي والوظيفة النفعية، وبين الدلالة الضمنية المرتبطة بالوظيفة الجمالية، ثم

^١ - المرجع نفسه، ص ٦٢-٨٩.

يضيف دلالة ثالثة هي الدلالة النسقية التي تكشف عن الفعل النسقي داخل الخطابات^١، وإذا كنا نحننا إلى أن مفهوم الجمال ليس ثابتاً، وإنما هو متغير يتغير الحساسية الأدبية المرتبطة، بشكل أو بآخر، بتغيرات غير أدبية، وبأن ما يسمى بالدلالة النسقية يمكن للنقد الأدبي أن يكشف عنها، فإننا نذكر الدكتور الغدامي بأن علاقة وثيقة تربط بين البنية النحوية والبنية الضمنية، وأن هناك تحولات مستمرة تمارسها البنية النحوية لخلق مضامين البنية الضمنية، وإغناء هذه المضامين، وأن النحوي هو الذي يتضمن الدلالة الأدبية، ويدفعها باتجاه المتلقي. فالنحوي هو تشكيلات البنية اللغوية وقواعدها، ولا يمكن الوقوف على أية دلالة نصية إلا من خلال البنية النحوية. فاللغة تتشكل وفق علاقات نحوية، ولا يمكن فصل محاورها ومقوماتها، إلا من أجل تعريف هذه المحاور ومحمولاتها التي تسجح في نهاية الأمر فضاء عالمها، الذي هو فضاء إنساني، كي تخصب هذا الفضاء من خلال إسهامها في تشييده أولاً، ثم في كشفه ثانياً. إن "الإنسان يشكل وجوه حياته من خلال اللغة بأكثر مما يعرف. العبادة والحب والسلوك الاجتماعي والفكر المجرد، وصور المشاعر، كل ذلك تشكل اللغة"^٢. ولذلك يمكن القول إن علاقات أساسية فاعلة تربط بين النحوي والأدبي والثقافي لكشف أنماط النص وأبعاده ومستوياته.

ثانياً: النسق الناسخ / اختراع الفحل:

يعد هذا المحور أبرز محاور كتاب الغدامي وأكثرها غنى بالمعلومات، لأن غاية الناقد في عمله هذا أبرز ما تتجلى في هذا الجانب الذي يتسع ليشمل الأساس الذي تقوم عليه بنية الشعر العربي، إذ يطعن من خلالها في سلوك الشاعر العربي الذي يقوم في معظمه على المراوغة والكذب والنفاق وضخامة الأنا، حسب زعمه، مما أسس شخصية عربية تمثلت مقومات ذلك السلوك، ورسخته من خلال علاقات اجتماعية نمطية، تدفع باتجاه ترسيخ ثقافة غير عقلانية، هي ثقافة الزيف والطمع والتفحيل وإلغاء الآخر. يقول: "وفي بحثنا هذا سوف نسعى إلى تشریح الأنساق الثقافية التي نرى أنها هي المكونات الأصلية للشخصية العربية التي صاغها الشعر صباغة سلبية / طبقية وأنانية، وتخلق من ورائها

^١ - المرجع نفسه، ص ٧٢-٧٣.

^٢ - مصطفى ناصف، نظرية التأويل، ص ٢١.

أنماط سلوكية وثقافية ظلت هي العلاقة الراسخة في قديمنا وحديثنا " ^١ . وكان سبق سعيه هذا تأكيده على أن " شخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع من جهة، وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخرين من جهة ثانية، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي مما ربي صورة الطاغية الأوحده (فحل الفحول) " ^٢ .

من هنا، نجد أن الغدامي يبدأ بالنتيجة أولاً، ثم يقوم بعد ذلك بتدعيمها، وبث الروح فيها، مخالفاً في ذلك قواعد البحث العلمي، لأن البحث العلمي من مهامه أن يبدأ أولاً بتناول الظاهرة واستقراء مكوناتها، ومقاربة هذه المكونات للوصول إلى الأحكام والحقائق، وليس العكس، لأن في الاستقراء انتقالاً للفكر من الجزء إلى الكل، من دراسة النصوص إلى تكوين الحقائق العامة والسمات المشتركة التي تعد بمثابة القوانين التي تكشف عن مفاصل هذه النصوص، وهذا لم يفعله الغدامي، مما يُشعر بعدم علمية أحكامه، والظعن في نزاهتها، خاصة إذا نحن أدركنا أن الأحكام التي تشكل منطلقاً للنقد الثقافي، كما لغيره، ينبغي أن تكون شاملة لبنية الظاهرة الثقافية موضوع البحث، وليست مجتزأة، فالنص بنية كلية، واختزال فكرة ما، من خلال عزلها عن سياقها الكلي يشكل خروجاً عن سياق الممارسة الإيجابية للظاهرة، والاستقواء بها على بقية الظواهر الأخرى. وهذا ما فعله الناقد في مواضع عديدة، إذ يقول: " ولقد ورد في الأثر الشريف في حديث الرسول (ص) أنه قال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً، وهذا أول موقف مضاد للشعر " ^٣ .

إن الغدامي يتسلح هنا بقول الرسول (ص) الذي يسفه فيه الشعر، ويسفه قائله، جاعلاً من هذا القول درعاً يتحصن خلفه للطعن في وظيفة الشعر الإيجابية، بوصفه ديوان العرب وسجل تاريخهم وحاملاً لقيمهم، غير أن الناقد قد أغفل مواقف أخرى للرسول (ص) كانت تثمن الشعر وتعلي من شأنه، عندما كان ينصت إلى روائع الشعر العربي، فيقول: " إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان

^١ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ٩٤-٩٥.

^٢ - المرجع نفسه، ص ٩٤.

^٣ - المرجع نفسه، ص ٩٥.

لسحراً^١، وهذا اعتراف من الرسول (ص) بأهمية الشعر، وما يحتويه. كما أغفل الغدامي حث الرسول (ص) حسان بن ثابت شاعر الرسالة المحمدية على قول الشعر والمنافحة عن الدين، في قوله: "اهجهم وروح القدس معك"^٢. وأغفل قول الخليفة عمر الذي يدفع فيه الناس إلى تعلم الشعر "احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنتهي عن مساوئها" وحتى القرآن الكريم لم يذم الشعراء بعامتهم، وإنما قسمهم إلى فريقين، فريق مع الله وفريق مع الشيطان^٣ فكيف تناسى الغدامي هذه الأحكام التي تنطلق من أعلى القيم الدينية وذروتها؟.

إن موقف الرسول (ص) الذي قدمه الغدامي دليلاً على زيف الشعر وانحطاطه، إنما هو مرتبط بسياقه التاريخي، والهدف منه، هو الوقوف في وجه شعراء قريش ومن يساندتهم، ممن افتروا على الله والرسول والمسلمين كذباً وزوراً، لأننا ندرك أن الرسول الأكرم قام بتوجيه شعراء الدعوة الإسلامية إلى المسار الصحيح، انطلاقاً من الوظيفة النبيلة التي يمكن للشعر أن ينهض بها، وهي الدفاع عن الحق والصدق وبث روح الفضيلة والتضحية بين الناس.

وعلى الرغم من ذلك كله، نجد الغدامي يشير إلى أن "الشعر ديوان العرب وسجل وجودها الإنساني والتاريخي، وبما أنه كذلك فلا مفر من حث الناس على تعلمه، كما فعل عمر في رسائل إلى بعض ولاته، وكما فعل ابن عباس الذي جعل الشعر أحد مصادر تفسير الآيات القرآنية"^٤. وهنا نريد أن نسأل الغدامي، كيف يمكن لخليفة مثل عمر أن يلجأ إلى حث الناس على تعلم الشعر، وكذلك ابن عباس، إذا كانا يدركان أن الشعر هو الشر وهو الكذب، في مخالفة صريحة لموقف الرسول (ص)، وهذا محال. إن الرسول الكريم الذي كان يؤكد في كثير من مواقفه قوله: "إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق، وهذه المكارم هي الكرم والعفة والمروءة والوفاء وغيرها، وهي المكارم نفسها التي حفظها الشعر، وأكد عليها، بوصفه حافظاً لهوية الأمة، ومجسداً لروحها وثقافتها، وليس كما يقول الغدامي من أن "القيم

^١ - الإمام أبو عبد الله محمد البخاري، صحيح البخاري، ص ١٩٧٦، رقم الحديث ٤٨٥١، وص ٢٢٧٦ رقم الحديث ٥٧٩٣.

^٢ - يوسف بن عبد البر (أبو بكر)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ص ٣٤٥.

^٣ - الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧.

^٤ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ٩٧.

الشعرية هي قيم البغي والاستكبار والفخر بالأصل القبلي، وهذا يرتبط بالغزو والشعر الذي لا بد أن يمجّد وأن يخلّد هذه المعاني. وهذه هي الحال منذ عمرو بن كلثوم المتباهي بالظلم والتسلط إلى زهير بن أبي سلمى الحكيم الذي يقول إن من لا يظلم الناس يُظلم^١. ولو أن الغدامي سعى وراء معاني الكرم والوفاء والحكمة التي يتضمنها الشعر الجاهلي، والشعر الذي تلاه، لكان أدرك الحدود الشاذة للقيم الشعرية التي أوردها هنا، وأن المعاني الإيجابية هي الأصل، وما عداها شاذ وغريزي يتبع سلوك الإنسان غير المنضبط. فالغدامي لم يجد في شعر زهير سوى نصف بيت من معلقته التي نظمها تكريماً لهرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين أوقفوا حرباً ضروساً بين الأقارب، وحقنا دماءهم بعد أن دفعا ديات القتلى من مالهما الخاص، وقد تناسى الناقد المعاني النبيلة التي تتصل بالحكمة والحلم والوفاء والعفة والإيثار التي تمتلئ بها معلقته ويمتلئ بها ديوانه الشعري.

بعد ذلك نجد الغدامي يعنى في إضفاء صفات خاصة استثنائية على الفحل الشعري الذي تك اختراعه بوصفه بمثل رأس الهرم الطبقي، ومكانته لا تتحقق إلا بإلغاء الآخرين عبر الظلم والبغي وسطوة الفرد الواحد، والقدرة على البطش وتضخم الذات، ويسوق أمثلة على الفحل الشعري، فيذكر جريراً والفرزدق وأبا تمام والمنتبي وغيرهم، على أن كلاً من هؤلاء الشعراء إنما ورث صفات التفحيل عن أبيه الشاعر، أو عن جده الشاعر، عبر تمثل تلك الصفات جيلاً، لا بل يزيد عليها. يقول: "وكما رأينا الفرزدق وجريراً يتقاسمان ضمير الأنا، فإن تنامي هذه الأنا النسقية يأخذ بالتلون والتنوع على أيدي الشعراء جيلاً بعد جيل، فالمتنبي وهو المترجم الأكبر للضمير النسقي مما يجعله شاعرنا الأول (الأب النسقي)"^٢. قبل أن نشير إلى المتنبي بوصفه أباً نسقياً، كما يقول الغدامي، نلفت إلى تضخم الأنا عند جرير والفرزدق، هذا التضخم الذي فاعله ما عرف بشعر النقائص، الذي عملت السلطة الأموية في بعض مراحلها على خلق المناخ المناسب له، بوصفه وسيلة لتسليية الجماعة العاطلة عن العمل، وإلهائها عما يجري داخل السلطة، خاصة أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك وابنه الوليد، إذ انبرى المهجؤون يملؤون أوقات الناس بأهاجيهم التي تحولت إلى نقائص مثيرة ومقدعة في المحماء والتفاخر بالأنساب

^١ - المرجع نفسه، ص ١٠٢.

^٢ - المرجع نفسه، ص ١٢٥.

وبالكلام على النار، وبالتشبيب والمس بأعراض الناس وهتك عورات النساء، خاصة بين جرير والفرزدق، مما تطلب من كل منهما البحث عن معان يتفوق بها على الآخر، وينال منه، ومن ينتمي إليهم تحت سمع السلطنة وبصرها^١.

أما بالنسبة إلى المتنبي، فترى الناقد يقدم شواهد من شعره يستدل من خلالها على الاستفحال وتضخم الأنا، كما في قوله:

" أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَبِي وَأَسْمَعْتَ كَلِمَاتِي مَن بِهِ صَمَمٌ
أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظْمٍ أَتَّقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي
وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا " ^٢

بالإضافة إلى نصوص أخرى يرى فيها الغذامي أن المتنبي يحتل مكان الصدارة في الخطاب النسقي من خلال تعاضل ذاته، وامتلائها به، دون أن يبقى فيها أي مكان للآخر، فهذه الذات فوق القانون وفوق الناس، وهو في ذلك كله ابن نسقي تناسل من قوم آخرين يمثلون طبقة نسقية متعالية^٣. ولكن على الرغم من أن المتنبي يحمل في داخله بعضاً من هذه الصفات، غير أنه يحمل معها صفات أخرى أكثر إيجابية، وأكثر إنسانية، وتنبئ باتساع أفق شخصيته وفيضها على الآخر، من خلال رؤيا تعمق حس الفضيلة والحق ورفعة الإنسان، ومن خلال نبذه لكل أشكال الخضوع والهيمنة والذل، في مثل قوله:

" إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى^٤

^١ - شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٤٠ - ٢٥٠.

^٢ - عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص ١٢٦ - ١٢٧.

^٣ - المرجع نفسه، ص ١٢٧ - ١٢٨.

^٤ - أبو الطيب المتنبي، الديوان، ص ١٥٠.

وقوله:

أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قَنَعْتُ مِنَ الدَّهْرِ بَعِيثٍ مُعْجَلِ التَّنْكِيدِ
عِشَ عَزِيْزاً أَوْ مُتَ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ
بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَخَفَقِ البُنُودِ
فَرُؤُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْعَظِيْظِ
وَأَشْفَى لِغَلِّ صَدْرِ الحَقُودِ
وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الخُلُودِ^١
فَاطْلُبِ العِزَّ فِي لَطْفِي وَدَعِ الذُّلَّ

وقوله:

" وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالمُلُوكِ وَمَا
تُفْلِحُ عُربٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ
وَلَا عُهوْدٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتِهَا أُمَّمٌ
ثُرَعَى لِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمٌ
يَسْتَخْشِنُ الخَزَرَ حِينَ يَلْمُسُهُ
وَكَانَ يُبْرَى بِظْفَرِهِ القَلَمُ"^٢

وقوله:

"مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ
مَا لِيُجْرَحَ بِمِيَّتِ إِيلَامٍ"^٣

وهناك معان كثيرة ماثلة يستبطنها شعر المتنبي، كان أولى بالنقاد الغدامي أن يكون أكثر انسجاماً مع ذاته في إظهارها، والإشارة إليها، وأكثر شفافية في إطلاق أحكام برئية وإيجابية من شأنها أن تطبع دراسته بالحيادية والعلمية، ذلك أن سعيه لقلب المعادلة وتجريم المثقف/الشاعر، وتزيه السلطة عن ممارسات التعالي وإلغاء الآخر المعارض، ومسحه من الوجود والذاكرة، في أحيان كثيرة، فيه كثير من العنت والبعد عن الموضوعية.

وقبل أن نغادر هذا المحور لا بد لنا أن نقف عند مصطلح الطبقات الثقافية الذي ضمنه الناقد في دراسته، بوصفه جزءاً فاعلاً في النقد الثقافي، على اعتبار أن تقسيم الشعراء إلى طبقات هو تمييز لهم من

^١ - المرجع نفسه، ص ٣٢٠ - ص ٣٢٢.

^٢ - المرجع نفسه، ص ٥٩.

^٣ - المرجع نفسه، ص ٩٤.

سائر البشر، يقول: " ثم إن مصطلح (الطبقات) ارتبط بعنصرين مهمين وملازمين له، هما عنصرا الفحولة وعنصر الأوائل، والطبقة الأرقى هي الأقدم وهي الأفضل، وهذا حسم الموقف في وقت مبكر ضد الحاضر والمستقبل.... وجعل الأول هو النموذج الكامل الذي لا تتوقع الثقافة نموذجاً أرقى منه^١، وقد فات الغدامي أن تصنيف الشعراء إلى طبقات كان تمت استعارته من رتب الموجودات الإلهية، ومن رتب الأشياء، وكانت الدراسات القرآنية أوجدت تراتباً في درجات اللفظ والمعنى، ثم تم تقسيم الخطابات الدينية والثقافية، فالقرآن الكريم خطاب من الدرجة الأولى، لأنه كلام الله وعلمه الأول، ثم يأتي الحديث الشريف بوصفه خطاباً من الدرجة الثانية لأنه يمثل حاشية على الخطاب الأول، ثم تأتي خطابات البنية الثقافية من شعر ونثر بوصفها خطابات من الدرجة الثالثة^٢.

ولو أننا عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن مفهوم الطبقات والتمييز بين مراتب الناس يرد في أكثر من سورة قرآنية، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^٣... وحتى دلالة السابقين التي ألمح إليها الغدامي، وكان استعارها من ابن المقفع، من أن الأوائل أرحح عقولاً، وبما أنهم كذلك فهم بالضرورة النسقية أعلم وأحكم^٤. هو أيضاً حكم قرآني بامتياز، حيث نجد في الخطاب القرآني تأكيداً على أهمية السابقين، بكونهم يمثلون الصفة في العلم والعمل ثم يأتي من تبعهم وتلمس خطواتهم وتجاربهم في المرتبة الثانية. يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالنَّاصِرِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^٥، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^٦.

فإذا كان الغدامي يتحدث عن النقد الثقافي الذي من مهمته كشف الأنساق الثقافية المضمره في بنية الشعر العربي، وغير المعلنة صراحة، فلماذا إذن لم يشر إلى حضور الخطاب الديني في توجيه الأقلام

^١ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ١٣٢.

^٢ - عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص ٢٣٩.

^٣ - الأنعام: ١٦٥ و ٨٣ و الإسراء: ٢١.

^٤ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ١٣٣.

^٥ - التوبة: ١٠٠.

^٦ - الواقعة: ١١ و ١٠.

التي صنفت الشعراء، ومراتب اللفظ إلى طبقات، حتى وإن كانت تلك الأقلام التي صنفت الشعراء قد انخرقت عن الأصل الذي تم فيه تصنيف الناس على أساسها في القرآن الكريم، بوصف القرآن المركز الفاعل في الثقافة العربية الإسلامية ومنع أحكامها.

إننا إذا سلمنا مع الغدامي بفاعلية النقد الثقافي في قدرته على كشف المضمّر في بنية الأدب، فإن هذا النقد (بما يمتلك من شمولية، حسب زعمه) "لا يعني تمريناً اعتيادياً وتجريبياً في القراءة، إنه ممارسة مرهونة بالوعي"^١، لا بل "إنه يسعى لإعادة ترتيب الوعي والدراية الذاتية والاجتماعية والقومية"^٢. وهذا لم يفعله الناقد على مدار بحثه كله، لأن ممارسته النقدية هنا، أخذت نسقاً معيناً، وسعت باتجاهه، وأغفلت الأنساق الأخرى الدينية والسلطوية التي فعلت فعلها في بنية السلوك العربي شعراً وممارسة، الأمر الذي عمل الغدامي على تجاوزه كي يجنب نفسه الصدام مع الخطابين الدينيين أولاً، والدينيوي (السلطوي) ثانياً، وهذا الأخير جهد، في رأينا، على تطويع الخطاب الديني لأسسه ومرتكزاته، وصار يستخدمه في تسويغ أفعاله وتمريها، كما سنرى في المحور القادم.

غير أنه وقبل أن نغادر هذا المحور، لا بد من الإشارة إلى أن الناقد الغدامي قام بنقل مفاهيم النسق والاستفحال والتفحيل والسلطة والانتهاك والحادثة وغيرها إلى رواد الشعر العربي الحديث، ونعني بهم السياب والملائكة وأدونيس ونزار قباني بوصفهم امتداداً لظاهرة التفحيل وسلطة النموذج النسقي. وبعد أن يفصل الناقد في موضوع ريادة الشعر العربي الحديث وكسر عمود الفحولة بفحولة مماثلة أو بفحولة تضاهيه وتتفوق عليه نجده يقول: "وإذا كان السياب مع نازك يمثّلان مشروعين في كسر عمود النسق الفحولي والتأسيس لخطاب جديد، فإن نزار وأدونيس سيتوليان إعادة الروح للنسق الفحولي بكل سماته وصفاته الفردية المطلقة والتسلطية، وسيحققان عودة رجعية إلى النسق الثقافي القديم المترسخ، والذي سيتجدد ويزداد ترسخاً وقبولاً على يديهما كممثلين فحوليين"^٣. وكما مارس الغدامي فعل التعمية على مضامين شعر زهير والمتنبي وغيرهما بغاية تأكيد مقولاته، نجده يمارس الفعل

^١ - محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، ص ١٩٥-١٩٦.

^٢ - المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.

^٣ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ٢٤٦.

ذاته مع هؤلاء الشعراء، لا سيما نزار قباني وأدونيس، إذ يقدم شواهد شعرية لهما، تدل حسب رأيه، على الفحولة وطغيان الأنا وتعاليتها واستبدادها وإغائها للآخر بطريقة انتقائية وقسرية^١.

أما من الجانب الآخر، فنجد الناقد يؤكد رجعية الحدائثه وغيابها في البعد الاجتماعي والفكري، وأنها حدائثه فردية متشعرنة نسقية^٢. غير أننا نعود لنذكر ما كنا أشرنا إليه في المحور السابق، من أن ما يتم الإعلان عنه بين الحين والآخر على أنه حدائثه دخلت مجتمعاتنا، ما تزال في الإطار الشكلي، ولم تستطع احتراق بنية المجتمع العربي وثقافته، لأن هذا المجتمع ما يزال يعيش حالات من الانقسام في التعامل مع مفرزات الحضارة، ويكاد يبدو عاجزاً عن التفاعل مع أي من هذه المفرزات بشكل منظم وعقلاني، وفي ظل ذلك تغيب الحدائثه الحقيقية وسط لجة القيم التقليدية، والممارسات الصنمية للحدائثه.

ثالثاً: تعريف الخطاب/صناعة الطاغية:

إن الغدامي في أثناء كلامه على محاولات تعريف الخطاب الثقافي والطعن في أهم قيمه، ونعني بها هنا قيمة الكرم بوصفها قيمة عليا في المجتمع، مرتبطة بالسلوك الإنساني الراقى، نجده يلمح إلى " شخصية الملك المطلق بصفاته المتعالية ومترلته المتفردة، وهي صفات سعى المناذرة والغساسنة إلى اكتسابها، لا عن طريق الجيوش، بل عن طريق المدائح الشعرية في مقابل بذل المال على المداحين"^٣. ثم يشير إلى أن الثقافة " اخترعت الرغبة والرهبه ليكونا أساساً شعرياً"^٤. ويضيف "وكما أن الثقافة صارت ثقافة شحاذة حسب النسق الشعري، فإنها اتسمت بسمة الروح الإرهائية في القمع والتخويف"^٥.

بعد ذلك نجد الغدامي يقفز فوق خمسة عشر قرناً في الزمن، حاطاً رحاله في أواخر القرن العشرين عند صدام حسين بوصفه نموذجاً سلطوياً، يمثل الأنا المتضخمة الفحولية التي لا تقوم إلا عبر التفرد المطلق بالغاء الآخر، وتعاليتها الكوني، وبكونها هي الأصح والأصدق حكماً ورأياً، ويكون

^١ - المرجع نفسه، ص ٢٩٢. ويمكن التأكد من عدم صحة مزاعم الغدامي بالعودة إلى نماذج أخرى من شعر نزار وشعر أدونيس، تنحو منحى مختلفاً، وتقدم معاني أخرى تقف على طرفي نقيض مع ما يقدمه الناقد هنا مما لا يتسع المجال لذكره.

^٢ - المرجع نفسه، ص ٢٩٢-٢٩٣.

^٣ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، ص ١٤٤.

^٤ - المرجع نفسه، ص ١٤٩.

^٥ - المرجع نفسه، ص ١٥٢.

الظلم عندها علامة قوة وسؤدد، والكذب عندها مباح، ولا يستقر وجودها إلا بسحق الخصم، إلى آخر هذه الصفات التي يؤكد الغدامي فيها، أن معجم صدام حسين يعني التطابق مع النموذج الشعري النسقي^١. ولكن، مع إقرارنا بأن ما يقوله الغدامي هو صحيح، نريد أن نسأل، ما السر الذي جعله يعبر فوق كل تلك القرون من الزمن، من الغساسنة والمناذرة إلى صدام حسين؟ ولماذا أغفل عصوراً مرس في جوانب منها أشكال من التنكيل والقتل، حتى إنه يمكن القول، بحسب مصطلحات الغدامي، إن صدام حسين هو ابن نسقي لكثير من الحكام قبله، وسلطته امتداد لسلطات أبوية سابقة، كما كان جرير والفرزدق والمنتبي وغيرهم أبناء نسقيين لما قبلهم. إننا نرى أن أنساقاً مضمرة متخفية في ثقافة الغدامي، تتكشف لنا، وتطل علينا بين الحين والآخر من خلال ممارسته النقدية هذه، لعل أبرزها ما استكمل بها قيمة الكرم التي تحولت، حسب زعمه، من بعدها الأخلاقي إلى بعد شعري، إذ يقول: "هناك علاقة كاشفة تدل على مدى الخراب النسقي الذي أحدثه الشعر في سلوكيات الثقافة، وذلك في حادثة تولي عمر بن عبد العزيز للخلافة، حيث جاء الشعراء إلى ديوان الخلافة مصطفين في صفوف، ومحمليين بالمدائح كما هو الطقس الثقافي المبرمج، مديح كاذب متزلف ومال مغدق، غير أن ما رأوه من ذلك الملك الصالح هو العزوف التام عن تلك البضاعة المغشوشة، ولم يخضع للعبة الرغبة والرغبة"^٢.

إن هذا النص الذي قدمه الناقد هنا، يكشف وبشكل جلي عن خطاب الهيمنة والتسلط الذي يمكن أن يجسده الحاكم في ممارساته، مهما كانت طبيعة هذا الحاكم، سواء أكان ملكاً أم أميراً أم والياً أم زعيم قبيلة، حتى وإن تغيرت الأسماء والألقاب، حتى وإن ادعى هذا الحاكم بأنه خليفة للمسلمين، أو أمير للمؤمنين على أساس أنه يحكم بشرع الله وسنة رسوله الكريم، وليس بشرع الدنيا وسلطانها المستبدة؟!، فإذا كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أميناً على قيم الحق والفضيلة من خلال سلطته الدينية والدينيوية التي تقوم على إصلاح المجتمع وتقويم ما انحرف من سلوك الأفراد، فإننا نرى أن شاهد الغدامي هذا يضمن أنساقاً أخرى، غاية في الخطورة والأهمية، تشي بأن السلطة هي التي تستدرج الشعراء وغيرهم لتمجيدها وتثبيت نظامها، بوصفها سلطة مستمدة من السماء، وكل من يخالفها هو

^١ - المرجع نفسه، ص ١٩٢ _ ١٩٤.

^٢ - المرجع نفسه، ص ١٥٧.

مارق وزنديق وعاصٍ، يجب القصاص منه، واستتصاليه باسم الدين أو باسم السلطة ذاتها. وأن الغدامي قد مارس نوعاً من التقية بغاية التعمية عما يمكن أن تمارسه السلطة الدينية أو السياسية. ويحفظ لنا التاريخ صنوفاً شتى من الممارسات التي تكشف عن استبدال هذه السلطة وطغيانها، بما مارسته من عمليات إقصاء للآخر، وترهيبة وقتله.

وقبل أن نسرد له بعضاً من هذه الممارسات، نشير إلى بعض طقوس النقائص التي كان أشير إليها سابقاً، ونلفت إلى الحادثة المشهورة التي جرت مع الخليفة سليمان بن عبد الملك في أثناء حجة له، حيث مورس فيها القتل من خلال مظاهر احتفالية الطابع تعكس استهتاراً بقيم الإنسان الذي كرمه الله تعالى، تلك القيم التي تمثلها الرسول الكريم (ص) وخلفاؤه من بعده، والتي تنص على عدم قتل الأسرى أو التنكيل بهم، فقد جيء بآلاف من أسرى الروم إلى هذا الخليفة وهو في طريقه إلى حج بيت الله الحرام، فأمر بحزّ حلاقهم، وأعطى لبعض من صحبوه أسياف يضربون بها رؤوس هؤلاء القوم، وكان ممن يصحبه جرير والفرزدق، فأعطى الفرزدق سيفاً قليلاً لا يقطع، فلما ضرب الرومي لم يصنع شيئاً في الرومي، فانتهز جرير هذه الحادثة ليضحك الناس عليه، وليشعره بضعفه وجبنه ووهن ساعده^١، مما يؤكد تلاعب السلطة بالناس من خلال كسر إنسانيتهم، دون أن ندري إن كان الشعر العربي ومن خلفه الشاعر وراء مثل تلك الأفعال؟!.

نعود إلى بعض المرويات المدونة التي تبين ممارسات السلطة في القتل والتنكيل ألم يأمر النعمان بن المنذر بقتل (سمنار) الذي بنى له قصر الخورنق، حيث تم قذفه من أعلى القصر فتقطع ومات؟^٢، ثم يأمر بقتل الشاعر المنخل اليشكري ودفنه حياً^٣، ثم ألم يأمر الملك عمرو بن هند عامله على البحرين بقطع يدي الشاعر طرفة وخاله المتلمس ورجليهما ودفنهما أحياء لأتھما هجواه؟^٤. وفي العصر الأموي يتم قتل الشاعر الكميت بن زيد على يد جند خالد القسري بالسيوف^٥. ويقتل الوليد بن يزيد

^١ - شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٤٨.

^٢ - خير الدين الزركلي، الأعلام، ص ٢٠٨.

^٣ - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ص ١٠٠-٥.

^٤ - المرجع نفسه، ص ٢٣٢-٢٣٤.

^٥ - المرجع نفسه، ص ٢٢-٢٣.

بن عبد الملك ندمه القاسم بن الطويل العبادي الأديب والشاعر، حيث أمر أن يُضرب عنقه، ويؤتى برأسه في طست وهو سكران^١، ويُقتل الشاعر حجر بن عدي الصحابي الذي شهد القادسية مع أصحابه عام ٥١ هـ من قبل المغيرة بن شعبة بأمر من معاوية^٢. ويقتل مصعب بن الزبير من قبل مروان بن الحكم، ثم يقتل عبد الله بن الزبير من قبل الحجاج أيام عبد الملك بن مروان، ويحز رأسه ويلعب به كما يلعب بالكرة^٣. ويقال إن من قتلهم الحجاج صبراً يزيدون على مائة وعشرين ألفاً^٤. حتى إنه يروى أنه لما بلغ الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز موت الحجاج، حرّ ساجداً، وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الآخرة^٥.

وبعد ذلك تأمر الأمويون على هذا الخليفة العادل فقتلوه، وكانوا من قبل قد قتلوا معاوية الثاني ابن يزيد لأنه صارحهم بمظالمهم، وأنكر عليهم استهتارهم بالحقوق العامة، أو لم يكن يزيد بن معاوية سكيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وقد قتل الحسين بن علي حفيد الرسول (ص) وأهله وأنصاره، وسبى نساءهم في السنة الأولى من ولايته، وفي السنة الثانية هب مدينة الرسول وأباحتها لجنوده، وقتل من أهلها أحد عشر ألفاً في موقعة الحرّة منهم سبعمائة من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي (ص)، وانتهكت حرمة ألف عذراء أو ما يزيد^٦.

أو لم يكن زياد بن أبيه مثلاً للبروت السلطة عندما خطب: " وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه، فيقول: انج سَعَد فقد هلك سعيد! أو تستقيم لي قناتكم " ^٧، ومثله يفعل الحجاج عندما خاطب أهل العراق بقوله: " يا

^١ - المرجع نفسه، ص ٧٧.

^٢ - خير الدين الزركلي، الأعلام، ص ١٧٦.

^٣ - أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ص ١٦٤.

^٤ - المرجع نفسه، ص ٣٠٩.

^٥ - المرجع نفسه، ص ٣١٤-٣١٥.

^٦ - جورج جرادق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص ٦٢٦ وما يليها. وابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء

الخامس، ص ١٢٩ و ص ١٣٤ و ص ١٣٦-١٣٩.

^٧ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص ٢٠٠.

أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، وأيم الله لألحونكم لحو العصا، ولأقر عنكم قرع المرؤة... ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، أما والله لا أعد إلا وفيت... والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده! من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله"^١.

ثم ألم يسر العباسيون على خطأ أسلافهم الأمويين في القتل والتنكيل وكم الأفواه، بعد أن افتتحوا سلطاهم بإلغاء الأمويين والقضاء على أمرائهم، عندما نفذ عبد الله عم أبي العباس السفاح الذي عين والياً على الشام القضاء على أمراء بني أمية، فأعلن عفواً عاماً عنهم، وأكد لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة، وبينما هم على الطعام، أشار إلى جنوده من مخبئهم، فخرجوا عليهم، ورموا رؤوسهم بالسيوف، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى، واستمرت المأدبة، واستبدل بزعماء الأمويين رجالاً من العباسيين، جلسوا فوق جثث أعدائهم، ثم أخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بني أمية، وسيطت هياكلهم التي كادت تكون عارية من اللحم، وشنقت وحرقت، وذرت رمادها في الريح^٢. ثم استمرت بعد ذلك عمليات القتل والتنكيل، حيث يتم قتل عبد الله بن المقفع على يد أبي جعفر المنصور بتقطيع جسده ثم يشوى في الثنور^٣. ويأمر المهدي بضرب بشار بن برد بالسوط وهو رجل مسن ضربة أتلغه فيها ثم رمى في الماء بعد أن بلغه أنه هجاه، وكان أتممه بالزندقة، ثم رأى خلاف ذلك فندم أشد الندم، ثم يقتل الشاعر عبد الله بن المعتز خنقاً، ويتم ذبح الشاعر (أبو نخيلة) بأمر عيسى بن موسى، ويسلخ جلده^٤، ويقتل دعبل الخزاعي على يد أحد أمراء المتوكل العباسي^٥، ويقتل الحسين بن منصور الحلاج على يد المقتدر العباسي، وتحرق جثته، ويرمى رمادها في نهر دجلة،

^١ - المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

^٢ - ول وإبرل ديورانت، قصة الحضارة، ص ٨٧. وابن عبد ربه، العقد الفريد، ص ٢٢٦-٢٢٧. وأبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ص ٣٤١.

^٣ - خير الدين الزركلي، الأعلام، ص ٢٨٤.

^٤ - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ص ٢٤١-٢٤٢ و ص ٢٤٦-٢٤٧.

^٥ - المرجع نفسه، ص ٤٠٤.

^٦ - المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

وينصب الرأس على جسر بغداد^١، وإذا أردنا أن نتجه نحو الشرق إلى غزنة والهند وغيرها سوف نجد كيف يتم القتل والتنكيل والسلب من قبل ملوك وأمراء وولاة ضمن طقوس تنتهك فيها حقوق الفرد وتداس كرامته^٢.

بعد هذا العرض التاريخي الذي تم تقديمه على بعض ممارسات السلطة، يمكن أن نسأل: هل يصح القول بعد ذلك إن الخطاب الثقافي هو المسؤول عن فساد الحاكم؟ ومن ثم المسؤول عن طغيان الأنماط السلوكية الفردية والأعراف الثقافية التي تمجد الحاكم، وتجعل منه كائناً غير ثقافي وغير إنساني؟، أم أن العكس هو الصحيح؟ ألم يدرك الغدامي أن السلطة، بحد ذاتها هي علاقة قوة، وأن العالم تحركه إرادة القوة وليس إرادة الفضيلة؟ وهذا ما دفع السلطة في كل زمان ومكان لكي تستقطب جمهور المثقفين، لترويج أفكارها ومساندة دعاؤها وتمجيد فعلها، سواء أكان هؤلاء المثقفون شعراء أم كتاباً أم فقهاء أم غير ذلك؟، المهم أنهم يرتبطون بأنساق السلطة، ويقنعون الناس بصواب موقفها. إنه "كلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له، المحافظين عليه"^٣، وعندما يمتنع الآخر عن التمجيد كان يقتل وينكل به، وإلا ما معنى أن يرفض الخليفة عمر بن عبد العزيز جماعات المجددين والمنافقين، ويأبى سلوكهم، ساعياً إلى رسم سياسة تقوم على الصدق والعدالة؟ فتم خلعه وقتله، لأنه كان أميناً على قيم الحق والفضيلة، وليس على قيم البغي والاستكبار!. ألم يقل ابن خلدون: "وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر وصاحبها متبوع، وصاحب العصية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس"^٤.

ولعل هذا السر في أن ملوك العرب وأمراءها وزعماءها لا يغادرون سلطاتهم إلا بالوفاة أو بالقتل، لأن الملك منصب مطلوب، يشتمل على خيرات وشهوات لا تحصى، ومن طبيعته الانفراد

^١ - خير الدين الزركلي، الأعلام، ص ٢٨٥.

^٢ - ول ديورانت، قصة الحضارة، ص ١٢٦ وما يليها.

^٣ - عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص ١٠٧.

^٤ - عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٣٩.

بالجد وإقصاؤه عن الآخرين، وقد يكون ذلك ناتجاً عن طبيعة السلطة بوصفها تقوم على إعادة إنتاج ذاتها، وناتجاً أيضاً عن طبيعة الملك بما يحتويه من عناصر سيطرة وقهر وإفساد. وفي القرآن الكريم ما يشهد على ذلك، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذُلًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^١ والملوك حكام أصحاب سلطة، والسلطة لا يمكن لها أن تكرر سيطرتها أو سطوتها إلا بامتلاكها السلطة الثقافية التي تستخدمها معبراً لتمجيدها وتسويغ أفعالها.

إن ذلك قد يكون حقيقة بشرية، أكدتها طبيعة الإنسان التي جُبل عليها، وقد لفت القرآن الكريم إلى الأسباب التي تجعل من الناس ميالين للشر وليس للخير في قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾^٢ وشواهد ذلك في كتب التاريخ والتراجم وعلم الاجتماع أكثر من أن تحصى^٣. فطبيعة النفس البشرية ميالة إذن إلى الشر والسوء وليس إلى الخير، فكيف إذا طغت هذه النفس وتجرت واستعلت على أبناء جنسها من خلالها تسلطها وهيمتها على مقدرات البلاد والعباد، وإلا لماذا يجعل الله سبحانه وتعالى الحسنه بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها؟!.

إن السلطة تميل إذن، بحسب طبيعتها إلى الشر والطغيان، وتعزيز استبدادها، والذي يمكن أن يصون كرامة الإنسان هو تكريس العدل وهيئة الأجواء الملائمة لنمو ملكاته، ومساواته في الحقوق والواجبات، وليس إلى مصادرة حريته، وإكراهه على فعل ما لا يرغب فيه، وشراء ولائته بأليائها المختلفة، وقد كان من الواجب على الناقد الغدامي، أن يلفت إلى طبيعة السلطة، وأن يقوم بتعريفها كما هي من خلال سلوكها الضاغط الذي تمارسه في ترغيب الآخر وترهيبه، لا أن يغادرها، ويستبدل

^١ - النمل: الآيتان ٣٣-٣٤.

^٢ - آل عمران: ١٤.

^٣ - عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٧٩-١٨٢ للوقوف على ما كان يدخل خزينة المأمون العباسي من قناطر الذهب والفضة والحلي والعسل وماء الورد والعود ومن الحرير والرقيق وغير ذلك.

استبداها وطغيانها باستبداد المثقف التابع وكذبه ونفاقه وتقيته، مما يجعل من أحكامه التي ساقها في مشروعه الثقافي هذا موضع شك وتحريف بوصفها أحكاماً تعوزها الدقة الموضوعية.

الخاتمة:

بعد أن وقفنا على مضمون كتاب النقد الثقافي للدكتور الغدامي، وجدنا أن مشروعه النقدي يقوم على طرح النقد الثقافي بديلاً من النقد الأدبي الذي أعلن عن موته، بعد أن أخفق، حسب زعمه، في كشف عيوب النص الأدبية، وأخفق في كشف أقنعة المؤسسة الثقافية التي تحتضنه وترعاه، وأن النقد الثقافي بأدواته وطرائقه، هو البديل الفاعل القادر على كشف أنظمة النصوص، وكشف العلاقات التي تربط هذه النصوص بالمؤسسات الثقافية والاجتماعية، ومن ثم كشف الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بمختلف تجلياته وأنماطه. وقد سعى الناقد إلى تأكيد ذلك على مستوى دراسته كلها، فقد حمل الشعر العربي مسؤولية صياغة الشخصية العربية صياغة سلبية تتأسس على الكذب والنفاق والتسلط من خلال صفات استثنائية ماثلة، اخترعها الشاعر، تقوم على التفحيل وتضخيم الأنا وإلغاء الآخر، تم توارثها جيلاً بعد جيل، مما هباً لظهور أنماط سلطوية تتمثل هذه الصفات وتعمقها من خلال ممارستها اليومية الضاغطة.

غير أنه بينا من خلال مناقشة هذا المشروع أن النقد الأدبي ما زال حياً، ويمكن أن يمارس فعله النقدي، وأن يكشف عن مضمونات النصوص التي يقرؤها، وأن النقد الثقافي نقد طارئ ودخيل، أخفق الناقد في تمثل طرائقه، كما حاولنا تصويب بعض مسارات البحث، فيما يخص اختراع الفحل الشعري، بوصفه يمثل رأس الهرم الطبقي من خلال ما عرف بمصطلح الطبقات الثقافية الذي هو مصطلح ديني بامتياز. أما فيما يخص تزييف الخطاب وصناعة الطاغية اللذين يرجعهما الناقد إلى المؤسسة الثقافية الشعرية بخاصة، فإننا أوضحنا كيف أن السلطة السياسية بما تمتلك من أدوات هيمنة وقوة، هي التي تسعى لتكريس مثل تلك الأفعال وفرض أنساقها على مفاصل الحياة.

القرآن الكريم

- ١- إبراهيم، د. عبد الله، **السردية العربية**، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
- ٢- الأصفهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، شرحه وكتبه هوامشه عبد علي المهنا، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٣- البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد، **صحيح البخاري**، الجزء الخامس، ضبطه وخرج أحاديثه ووضع فهرسه الدكتور مصطفى البغا، د.ط ، مطبعة الهندي، د.ت.
- ٤- جابر، يوسف حامد، **قضايا الإبداع في قصيدة النشر**، الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩١م.
- ٥- جرداق، جورج، **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، منشورات ذوي القربى، د.ت.
- ٦- ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ٧- ديورانت، ول وايرل، **قصة الحضارة**، الجزء الثالث من المجلد الأول، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الفكر، بيروت.
- ٨- **قصة الحضارة**، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، دار الجليل، بيروت.
- ٩- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، الجزء الثاني والثالث والرابع، الطبعة الثالثة، د.ت.
- ١٠- ضيف، شوقي، **العصر الإسلامي**، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م.
- ١١- ابن عبد البر، أبو بكر يوسف، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، الجزء الأول، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- ١٢- ابن عبد ربه، أحمد، **العقد الفريد**، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- ١٣- الغدامي، عبد الله، *النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية*، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- ١٤- الغدامي، عبد الله ، اصطيف، د. عبد النبي، *نقد ثقافي أم نقد أدبي*، د.ط، دار الفكر، دمشق، سورية، ، ٢٠٠٤م.
- ١٥- الكواكي، عبد الرحمن، *طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد*، دراسة وتحقيق د. محمد جمال طحانة، الطبعة الاولى، دار الأوائل للنشر والتوزيع، سورية، دمشق، ٢٠٠٣م.
- ١٦- المتنبّي، أبو الطيب، ديوان أبي الطيب المتنبّي، شرح أبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ١٧- الموسوي، محسن جاسم، *النظرية والنقد الثقافي*، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- ١٨- ناصف، د. مصطفى. *نظرية التأويل، الطبعة الأولى*، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٠م.
- ١٩- هلال، محمد غنيمي، *النقد الأدبي الحديث*، د.ط، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

Abstracts in English

A Critical Look at Cultural Criticism by Dr. Abdollah Ghazami

Dr. Yusef Hamid Jaber*

Abstract

The book, *Cultural Criticism*, aims to discover literary patterns which comprise the current cultural infrastructure. The author uses a critical approach which is different from the established literary criticism, which limits itself to exploring the beauties of literary texts and ignores the central but not so apparent themes. Therefore, cultural criticism is necessary so that these cultural patterns and themes as well as the styles of the works become known. These styles are interwoven with social styles and norms and it is these norms and styles that help or hinder their expansion. This article examines the most important themes of this book and attempts to suggest modifications to its approaches and methods.

Keywords: criticism, culture, patterns, text, Abdollah Ghazami

* Assistant Professor in Arabic Language and Literature Department at Teshreen University, Syria.

چکیده های فارسی

نگاهی نقدی به کتاب نقد فرهنگی « دکتر عبد الله غدامی

دکتر یوسف حامد جابر*

چکیده

کتاب نقد فرهنگی در پی کشف مکنونات الگوهای متون ادبی ای است که زیرساخت فرهنگ رایج را تشکیل می دهند. مؤلف این کتاب طرح نقدی خود را به عنوان جایگزین نقد ادبی که مأموریتش محدود به جستجوی زیبایی های این متون است ارائه می دهد. تا مکنوناتی را که گوهر اصلی آن است نادیده بگیرد.

از اینجاست که نقد فرهنگی صورت می گیرد تا آن الگوهای فرهنگی و مضامین آن همچنین اسلوب های آن را آشکار کند که این اسلوب ها با اسلوب ها و روش های جامعه در آمیخته است و بوسیله ی آن هیمنه ی خود را گسترش می دهد و از طریق تولیدات فرهنگی و اجتماعی گوناگون این هیمنه را پنهان می کند.

در این مقاله ما مضمون این کتاب را در مهمترین بخش های آن مورد بررسی قرار داده ایم و تلاش نموده ایم برخی از روش های آن را اصلاح کنیم.

کلید واژه ها: نقد، فرهنگ، الگوها، متن، عبد الله غدامی

* - استادیار، گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه تشرین، لاذقیه، سوریه.